الشيخ يهمل أن يزور الأغنياء من أهل المدينة، ويستجيب لهم إذا دعوه، فيفطر على موائدهم ويصلي عندهم العشاء والتراويح، ويسمع لقرائهم. وكان الشيخ قد دعا قراء المدينة جميعًا ليقرءوا في داره وفي دور أصحابه، حتى لم يدع منهم قارئًا حسن الصوت إلا ضمن له تلاوة القرآن أثناء شهر الصوم، وحتى احتاج إلى أن يدعو قراء من المدن القريبة يقرءون عنده. ولم يدع أثناء هذا الشهر أحدًا من أصحابه إلا اختصه بشيء من حديث.

وفي ذات ليلة كان يتحدث بين سورتين من سور القرآن، والخدم يطوفون بقهوة البن والقرفة على جلسائه، وإذا هو يقطع حديثه فجاة وينظر إلى اثنين من أصحابه كانا يتحدثان، أحدهما علي أبو خالد، والآخر رجل من أصفياء الشيخ ومن أغنياء الريف القريب يقال له الحاج مسعود. نظر إليهما نظرة نافذة قطعت حديثهما وردَّتهما إلى الصمت، وقال لهما: فيم تتحدثان؟ فهمَّ علي أن يجيب، ولكن الشيخ لم يمكنه من الجواب، وإنما قال: استمع لي يا مسعود! احذر صديقك عليًّا هذا، إنه يدور حولك لتزوجه إحدى بناتك؛ فلا تفعل فإنه مزواج مطلاق، ولكن عليك بابنه خالد؛ فإن فيه البركة وعنده الخير، وما أرى إلا أنه سيصهر إليك وسيخطب صغرى بناتك. إني ما زلت أذكرها، إنها لخيرة مباركة، فإن فعل فلا ترده خائبًا، وإن لم يتح لي أن أزوجهما فسيزوجهما ابني إبراهيم. فأما علي فبهت وضحك ضحكًا سخيفًا. وأما الحاج مسعود فنهض من فوره وسعى إلى الشيخ فقبل يده وبللها بدموعه، وكان رجلًا رقيق القلب بَكَّاء، وقال في صوت تقطعه العبرة: بل يبقيك الله ويطيل عمرك يا سيدنا وتزوج سائر بناتي كما زوجتَ من تزوجتْ منهن. قال الشيخ وهو يضحك: يا غلام! قهوة سوداء للحاج مسعود، فما يرقئ عبرته هذه إلا القهوة السوداء. اجلس يا مسعود، بارك الله عليك وبارك لك في بناتك وفي ذريتك، ثم استأنف حديثه من حيث قطعه وجلساؤه يرون ويسمعون ويعجبون ويقول بعضهم لبعض: لقد نالها الحاج مسعود! من يعدل الحاج مسعود! ليتني مسعود!

على أن شهر الصوم لم ينتهِ دون أن يحمل إلى الشيخ وإلى أصحابه نبأ محزنًا؛ فقد جاءهم من القاهرة نعي عبد الرحمن قبل أن ينقضي الشهر بثلاثة أيام. فلما أقبل علي يحمل النبأ إلى الشيخ بكى واسترجع وقال: تبارك الله! لقد كنت أظن أني سأسبقه فقد سبقني. ثم سكت لحظة واستأنف حديثه فقال لعليٍّ وابنه خالد: فإنكما تذكران ما أعطيت عنكما من العهد. قالا: نعم. قال: فاذهبا إلى القاهرة فأديا الواجب، وضما إليكما